العرب
الجمعة 2019/12/27
السنة 42 العدد 11569

التغيير في السعودية رسالة أمل لبقية بلدان المنطقة

الرؤية الجديدة للمملكة تراهن على نشر الاعتدال الديني

أمل جديد سيكون له مردوده على الجميع

بعد تراجع دور مصر ولبنان الثقافي والتنويري في عموم المنطقة، انتقل التأثير المركزي إلى الإقليم الخليجي تحديدا وزاد حجم فاعلية هذه البقعة الجغرافية، وتضاعف تأثيرها في المنطقة. وبعد أن كانت السعودية تلعب دورا محافظا لا يهتمّ بموقع الصدارة ولا قيادة الموقف رغم مركزيتها الدينية، فإن الظروف التي عصفت بالمنطقة حتّمت على الرياض أن تتقدم خطوات إلى الأمام اعتمادا على رؤية وليّ العهد الشاب الأمير محمد بن سلمان التي شملت جميع المجالات والميادين. وزادت شمولية الرؤية واهتمامها بكافة الجوانب من إشعاعها لتكون بارقة أمل للمنطقة ونموذجا يمكن الاهتداء به للخروج من أقبية التشدد والانغلاق للالتحاق بركب العصر والتحديث.

عمر علي البدوي
كاتب سعودي

يشكل قرار وخيار التغيير في السعودية تأثيرا واسعا يتجاوز حدودها إلى محيطها الإقليمي وربما الدولي، والفضل في ذلك يعود إلى مركزيتها الدينية والثقافية والجغرافية، بمعنى أن تفضيلاتها المحلية في الشأن الديني أو السياسي أو الثقافي سيكون لها مردودها على بقية المنطقة، وتأثيرها في السيرورة التاريخية التي تخيّم في سمائها وتشكل مستقبلها.

المستقبل، في واقع الحال، هو رهن الخيارات الكبرى التي تُتخذ الآن، وراهن المنطقة في يد العواصم ذات القرار المؤثر، مجتمعة كانت أو منفردة، لأن حالة التيه والانسداد الذي يعاصره العرب، سيؤول إلى نتيجة ما، وإذا لم تشارك العواصم العربية المهمة في صناعته – لاسيما تلك المتصلة بهوية المنطقة وشكل اللاعبين النافذين في قلب معادلاتها المحلية – ستبقى في أسر الخيارات الخارجية المستقوية بضعف العرب وإحجامهم.

لقد كانت مصر محور العالم العربي، ينتشر تأثيرها الثقافي والتنويري في عموم المنطقة، بفضل ما تمتعت به من نهضة سبقت إليها بقية الأقطار العربية التي كانت متأخرة وربما متخلفة، وكانت القاهرة تمدهم بالكفاءات التعليمية والصناعية والعسكرية والسياسية، لكن ولظروف مجتمعة، تراجع الدور والتأثير المصري، ولعلها ستستعيد ذلك قريبا بعون أشقائها العرب والخليجيين تحديدا، رغم كل التحديات الشاقة والمشكلات المترسبة في عمقها المحلي التي تقتضي الصبر والانتظار الطويل.

وكذلك كان لبنان في لحظة ليست بالبعيدة من التاريخ، منارة ثقافية، تشع منه أنوار الحضارة، ويضخ الكفاءات في كل الخارطة العربية التي لم تكن بعد قد قامت لها قائمة، ولكن التأثير اللبناني هو الآخر انحسر وتراجع.

انتقل التأثير المركزي، إلى الإقليم الخليجي تحديدا، زاد حجم فاعلية هذه البقعة الجغرافية، وتضاعف تأثيرها في المنطقة، السعودية كانت تلعب تاريخيا دورا محافظا لا يهتمّ بموقع الصدارة ولا قيادة الموقف، رغم مركزيتها الدينية على أساس أنها حاضنة الحرمين الشريفين بكل حمولاتهما التاريخية والمعنوية، لكن السعودية لم تهتم بأكثر من لعب دور مساند أو وازن في كل المفاصل الحادة التي اعترضت المنطقة.

لكن الظروف التي عصفت بالمنطقة، حتّمت على الرياض أن تتقدم خطوات إلى الأمام، إلى المركز في معادلة التأثير، وزاد ذلك من إشعاع الخيارات التي تتبناها بما ينعكس بصورة مباشرة أو غير مباشرة على المحيط الإقليمي، فضلاً عما له من صدى في الحيز الدولي والعالمي.

> **خيار التغيير في السعودية يفعل ما يشبه الإنعاش للمنطقة، لاسيما أن القرار جاء شاملا وعارما، واستهدف كل المجالات**

لقد كان الدور منتظرا من السعودية، لأمرين، أحدهما من واقع مركزيتها في الوجدان العام، والآخر لأن الكثير من تلك المنارات العربية أظلمت وتراجعت، وأصبح دورها قاصراً عن التأثير، وكادت سماء المنطقة أن تتلفع بالسواد، فيما واقعها يغوص في هاوية من التراجع الذي يشبه السقوط الحر في كل المجالات.

ويفعل خيار التغيير في السعودية ما يشبه الإنعاش للمنطقة، لاسيما وأن القرار جاء شاملا وعارما، واستهدف كل المجالات، ولا بد أنه سيترك تأثيرا، قد لا يرقى إلى انتشال المنطقة من وهدتها، لأن لكل بلد شروطه الموضوعية بشأن النهضة المحلية.

تتعاطى السعودية اليوم بنمط من الاعتدال في مقابل التشدد، بعد أن كانت رياح التطرف تعصف بالمنطقة، وكانت كل الحلول عاجزة دون مراجعة التراث الديني الذي تحتفظ السعودية بأحد نماذجه ونسخه الأكثر عراقة، وتتبنى الصيغة السعودية اليوم مفردات أكثر انفتاحاً وتجدداً وتراهن على المكون الوسطي في المحتوى الديني الذي تنشده وتتعامل على أساسه.

سيلعب هذا دوراً عريضاً في تفتيت بنى التشدد التي انعكست على الكثير من المجالات، ففيما يتصل بشأن المرأة مثلا، سيكون حقها في المساواة والتمكين عاليا ومرتفعا، بفضل الفرص الواسعة التي حصلت عليها المرأة السعودية، ولأنها تعيش في منطقة جغرافية تشكل النبع الاجتماعي لكثير من المحيط العربي، سيساعد خلق النموذج في توسيع رقعة التماثل والتأثير، ولعل مثال قرار السماح للمرأة الإيرانية بالدخول إلى ملاعب كرة القدم بعد أن كان محرماً ويعرّضها للمحاكمة، جاء بتأثير وإيحاء من جارتها السعودية بعد أن سُمح للمرأة فيها منذ فترة قصيرة بأن تشارك الجمهور في ملاعب كرة القدم.

وعلى هذا المنوال سيكون تأثير وامتداد الخيارات السعودية في بقية القطاعات والمجالات، وفي دفع الدول المشلولة أو المحتبسة في أقبية التشدد والانغلاق أن ترخي قبضتها، وتنسجم مع تيار السلم والعصرنة والتحديث، والتخفيف من وطأة التوتر والفوضى والانفلات التي تضغط على المنطقة وتفوّت الكثير من الخير على أجيالها.

فضلاً عن الخيارات الدينية والثقافية والاجتماعية، سيكون لزيادة حيوية العمل الرسمي الذي اتخذته السعودية اليوم تأثير على بقية دول وحكومات المنطقة في وجه الشلل العام الذي كان يكسوها، وتسبب في خلق اضطرابات واحتجاجات واسعة انتهت إلى وجوه مختلفة من الشقاق والحرب الأهلية وخراب المدن والحواضر العربية.

وكان لا بد لهذا أن يتوقف، وأن تعيد الحكومات والأنظمة الرسمية القائمة والمستحدثة النظر في طبيعة عملها وواجباتها تجاه مجتمعات جديدة متطلبة وساخطة على عجز الحكومات عن تلبية حاجاتها المختلفة.

كما أن زيادة الجهد السياسي الذي تبنته عدد من العواصم الخليجية بقيادة الرياض وأبوظبي، سيكون له فضله الإيجابي على المنطقة، وسيزيد من تحصينها من المشاريع الإقليمية الجارة التي تستهدف إضعافها وإنهاكها واستنزاف ثرواتها.

الدور المهم الذي تتبناه كل من الرياض وأبوظبي مهم في مقاومة الاختراق الخارجي، وكذلك قرارها الجاد لمحاربة الفساد في شكل حملات قاسية على أباطرته أو تنظيم قوانينه المحلية، فضلاً عن سعي حثيث ودأب جاد لتوطين عمليات التصنيع العسكري وأنظمة وبرامج ومعارض السلاح، التي ومع الوقت ستكون ذات شأن في زيادة تحصين المنطقة من ابتزاز القوى الكبرى وعبثها بمستقبل المنطقة وأمن شعوبها.

«ممالك النار».. عصا موسى تذكّر بجريمة ضد الإنسانية

دأبت تركيا عبر المسلسلات التي تنتجها إلى تقديم قراءة مجتزأة ومحرفة للوقائع والأحداث التاريخية، في مسعى منها لتبييض وتلميع صورتها، لهذا تقابل أي قراءة مغايرة للتاريخ العثماني بحملات إعلامية غاضبة وهجوم على الجهة التي تقدم تلك القراءة كما لو أنها قد اخترقت محظورا دوليا أو نصا دينيا. وقد واجه المسلسل العربي "ممالك النار"، هذا الهجوم لأنه نبش في التاريخ العثماني ونسف الأساطير والأوهام التي روّجت لها المسلسلات التركية، مثيرا بذلك جدلا كبيرا لدى عموم المشاهدين وفاتحا أبواب نقاش حول جرائم العثمانيين في مصر وعموم المنطقة.

سعد القرش
روائي مصري

لا تنتهي الشظايا الناتجة عن قذيفة المسلسل التلفزيوني «ممالك النار»، حتى بدا لعموم المشاهدين أقرب إلى عصا موسى تبطل أكاذيب مدرسية، وتنسف أساطير وأوهاما روّجت لها مسلسلات تركية أنفق على إنتاجها ببذخ.

المسلسل مثل أيّ فن هو رؤية وليس تأريخا، ولكنّ للفنون سحرا خاصا يفتح لها طريقا إلى مخاطبة الوجدان، واستعادة لحظة بمباهجها ومآسيها كأنها تقع الآن والمشاهدون يتورطون فيها، ويتماهون مع طومان باي، حتى أن البعض أعلن عن أدائه عمرة يهب ثوابها إلى شهيد شنقه الغازي سليم الأول المطارد بلعنة دماء المصريين، ولم يكن مضطرا إلى قتل عشرة آلاف نفس بعد الغزو، ولكن من ينشأ على استباحة الصعود إلى الكرسي على جثث إخوته، لا يتردد في ارتكاب ما يصنف الآن جريمة ضد الإنسانية.

لم أتحمس لمشاهدة المسلسل؛ لإيماني بأن ما ينتج من فنون بدافع الثأر أو التمجيد يكون مباشرا وموجّها ومنزوع المصداقية. وحين رأيت ردود الأفعال من مستويات متنوعة، لا تتفق إلا على "وجيعة" أو "حقيقة"، أدركت خطئي، وكان المسلسل قد انتهى عرضه تلفزيونيا، ويواصل كثافة المشاهدة على يوتيوب، ولم يخرج منه المشاهدون كما دخلوا. دخلوه مطمئنين أو محايدين، وانتهوا منه قلقين يحملون أسئلته، ويدورون بها على المصادر، ويختبرونها لدى المؤرخين، ويغرقون في أضابير الإنترنت ومتاهاته التي تضل وتهدي.

أحدث المسلسل انشطارات أعمق أثرا مما خطط له صنّاعه، بإثارته للجدل، وتحريكه للمستقر، وفتحه لأبواب النقاش على ما هو أكثر من جرائم العثمانيين في مصر، وخصوصا هوية مصر، وما إذا كان المماليك جزءا من تاريخها، أم كانوا غزاة أنهى حكمهم عدوّ آخر، أكثر منهم استجابة لطبيعة عصره؟

ما يمكن الاطمئنان إليه أن المصريين لم يطلبوا إلى السلطان تخليصهم من المماليك، ولم يكن بينهم أيّ سلف لمن قال عام 1942 «إلى الأمام يا روميل»، ليستبدل احتلالا نازيا بآخر بريطاني.

الأخطر من هذا كله هو قدرة المسلسل على كشف وجهين لعبودية مختارة، تتلخص في استلاب نفسي وفكري لدى قطاع، كدت أخطئ وأقول "قطيع"، يضم باحثين يعطون صفة "الفتح" لقوة غازية، كما يشمل مساكين إمامهم يوسف القرضاوي رئيس ما يسمى الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

هذا شيخ لا يرى رغم تجاوزه التسعين، وربما بسبب هذا التجاوز، أن تركيا هي أكبر حليف اقتصادي وعسكري للعدو الصهيوني، ولكنه يواصل الرهان على الخليفة رجب طيب أردوغان في قيادة المسلمين، بزعم أنه "الذي يحمي الأمة الإسلامية (تصفيق تتبعه حماسة قرضاوية)، والله أقولها حقيقة، الرجل الذي يحمل همّ الأمة الإسلامية في كل مكان هو أردوغان".

وقبل الانتخابات الرئاسية التركية عام 2014، حسم القرضاوي فوز أردوغان؛ "لأن الله معه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير".

صرفني عن مشاهدة مسلسل "ممالك النار" ظنّ استباقي بأن يكون سلاحا في خلاف قائم، مؤقت بالطبع. وأرى أن تنأى الكتابة والبحث التاريخي والفنون عموما عن الاستجابة الانفعالية للتشاحن السياسي؛ لأنه عارض ينتهي بزوال أسبابه، وتبقى الكتابة والفنون سجلا لا يطوى، بل يطارد ضمائر أصحابه، يدينهم ويرميهم في موقع شهود الزور. ويختلف هذا عن بحث قضايا إنسانية أسمى من الاستثمار في الكيد والضغط السياسي.

في مقال عنوانه "المزاج الشعبي لا يخطئ كثيرا حين يلتقط الشفرة"، منشور في صحيفة "العرب" في 11 أغسطس2015، ذكرت أن السفاح سليم ارتكب "جريمة حرب"، بقتل أكثر من عشرة آلاف مصري، ولم يجدوا من يدفنهم، "فصارت جثثهم مرمية على الطرقات"، كما روى المؤرخ ابن إياس الحنفي. وقلت إن تلك "جريمة أخرى ضد الإنسانية تحتاج إلى من يحرك هذا الملف". وفي 20 فبراير2018 نشرت مقالا عنوانه "مصر تكرّم الغزاة.. قميز والسلطان سليم مثلا" سجلت تسويغ شيخ الإسلام "علي زنبلك" شرعية غزو مصر بفتوى دينية مشبوهة هدّد سليم بها طومان باي تهديدا لا يحتمل التأويل بأن "الله تعالى قد أوحى إليّ بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق والغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين". وحظي سليم الأول بشارع في القاهرة.

لا تتردد الضمائر الحية في مراجعة أخطاء الأسلاف والاعتراف بها، تطهرا وإبراء للذمة. فهل تفكر مصر في إثارة جريمة ضد الإنسانية لا تسقط بالتقادم، ما دام للمجرمين ورثة يتباهون بتاريخهم الدامي، كما تفعل تركيا؟ لا أظن منسوب الإرداة السياسية الآن يسمح باتخاذ هذا الإجراء القانوني، بعد التراخي في قضية شهودها ومجرموها أحياء، وتخص ارتكاب العدو الصهيوني جريمة حرب في حق الأسرى عام 1967. القضية أثيرت في تسعينات القرن العشرين، وتجددت عام 2007 بعد بث التلفزيون الإسرائيلي فيلما تسجيليا عنوانه "روح كاشيدا" تضمّن قتل 250 جنديا مصريا بعد هزيمة 1967 على أيدي إسرائيليين. وما فعلناه أننا طالبنا المجرم بموافاتنا بنتائج التحقيق في الجريمة.

تغني عن العجز السياسي أحيانا قوة الإدانة الشعبية، ونجح مسلسل "ممالك النار" في إيقاظ الذاكرة، وتجسيد وحشية جنود السفاح سليم، وقد وصفهم ابن إياس بأنهم "همج كالبهائم"، نهبوا الممتلكات، وأشعلوا النيران في المساجد والمنازل، وأرسوا قاعدة فداء الأنفس بالمال، بخطف "أولاد الناس" من الطرقات والبيوت ومساومتهم، "فيقولون لهم اشتروا أنفسكم منا من القتل".

> **المسلسل أحدث انشطارات أعمق أثرا مما خطط له صناعه، بإثارته للجدل، وتحريكه للمستقر، وفتحه لأبواب النقاش على ما هو أكثر من جرائم العثمانيين في مصر، وخصوصا هوية مصر، وما إذا كان المماليك جزءا من تاريخها، أم غزاة أنهى حكمهم عدو آخر، أكثر منهم استجابة لطبيعة عصره؟**

وبعد النهب العشوائي والمنظم، بدأ تفريغ مصر من مخزونها الثقافي والفني والمهني، بأسر نحو ثلاثة آلاف من المتخصصين المهرة في أكثر من خمسين حرفة: وراقين وخطاطين ومجلدين ومذهبين وبنائين ونقاشين ومزخرفين ورخامين ونجارين ونحاسين وحدادين وزجاجين ونساجين وصباغين. وبعد أسرهم جرى ترحيلهم إلى إسطنبول، مع منهوبات من المخطوطات، ومنقولات من تراث القاهرة المعماري، وحملت آلاف الجمال إلى عاصمة الغزاة أبوابا أثرية وشبابيك ومشربيات من العمائر والمساجد والوكائل.

من يشعر بحنين إلى الغازي ويفخر باحتلال أجنبي لبلاده فإن عليه مراجعة وطنيته ووعيه. أما الخيلاء التركية فيمكن تفسيرها في ضوء عقدة نقص تاريخية تتماس مع تجارب لاحقة تجسدها الولايات المتحدة وإسرائيل، وليس مصادفة أن الثلاثة حلفاء.

مسلسل ينسف أساطير وأوهاما روّجت لها مسلسلات تركية